مسالك التأثير الديني إلى الروح القومية

بقلم محمد عيد

ان عامل الدين وصلته بالقومية من المسائل الحساسة التي يحجم كثير من الكتاب عن تناولها والخوض فيها، اذ يؤثرون السلامة على التجربة والمحاولة .

لكن اغفال الواقع لا ينفيه ولا ينفي تأثيره ، والواقع ان الدين يفرض وجوده بقوة على عقول الملايين ووجداناتهم ، كما يفرض نفسه كقضية بالغة الخطر على كل باحث يتصدى فكريا للحديث عن القومية .

ويرجع الاحجام عن تناول هذا الموضوع الى وجود اقليات غير مسلمة ، قد يكون من الحساسية لها الخوض فيه ، بل ان هذه الحساسية نفسها تصدق ايضا على الاكثرية المسلمة عند اثارة هذا العامل بالذات ، ولكن الذي اعلمه اننا في هذه المرحلة قد تجاوزنا فكريا مراحل الانفعالات الفجة ، والمراهقات الفكرية الى مرحلة موضوعية ناضجة ترتفع في فهم قضايانا القومية عن ضيق الافق والتشنجات السطحية الى نظرة رحبة متسامحة . فيها تقرير للحقيقة كما هي في الواقع ، لا كما تلونها العصبيات والتقاليد .

واذا صرفنا النظر عن هذا الموقف السلبي تجاه هذا الموضوع ، فان من يحومون حوله يلمسونه لمسا رفيقا لا يعتصر كل ما فيه ، ولا يعطينا صورة متكاملة عن هذا الموضوع الحيوي الخطير ، وباستقراء هذه الاراء بما هي عليه من الرفق وقصر النفس نجد انها تنقسم الى تيارين فكريين يتصارعان في اذهان الباحثين ، ويكونان بصورة عامة ابعاد الصراع واعماقه .

اما التيار الاول فمن رأيه ان الدين عامل مؤثر كل التأثير في القومية ، بل هو اهم العوامل التي اوجدت الشعور القومي ووحدة العرب وحضارتهم ، فهم مدينون له بكل ما يتغنون به من امجاد التاريخ والحضارة والمشاعر القومية ، ومن ابرز الاراء في هذا الاتجاه رأي الدكتور طه حسين الذي اعرب عنه غير مرة في تصريحات متناثرة ومقالات متباعدة ، نذكر منها على سبيل المثال ما صرح به في الكلمة التي القاها في مؤتمر الادباء الثالث الذي انعقد بالقاهرة ، والذي خصصت مجلة « الاداب » احد اعدادها الممتازة لنشر اهم ما جاء فيه (١) ، قال الدكتور طه « فالقومية العربية اذا اردنا ان نعرف متى تكونت بالمعنى الدقيق لكلمة القومية ، فينبغي ان نردها الى ظهور الاسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع انواعها وفروعها ، الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية ايضا انما هو النبي (ص) هو الذي جاء بالقرآن ودعا الى الحق (٢) » .

ثم يستعرض بعد ذلك مراحل ارتباط القومية بالاسلام — من وجهة نظره — منذ ظهوره فانتشاره في البلاد الاسلامية المختلفة مؤكدا في هذا العرض الفكرة السابقة من ان الاسلام هو اساس القومية ومنشؤها ، ومنه وبه انتشرت بين العرب والمتعربين على السواء « فاذن هناك قومية عربية جديدة انشأها الاسلام ، لم تكن تأتلف من عنصر عربي خالص ، وانما كانت تأتلف من جميع العناصر التي كانت تسكن هذه البلاد — يقصد البلاد المفتوحة — فانشأ الاسلام اذن امة جديدة ، وجعل هذه الامة عربية ، عربية اللغة ، وعربية التفكير والشعور ، عربية الحضارة ، وعربية العلم والثقافة والادب (٣) » والدكتور طه لا يمثل بهذا الاتجاه السابق نفسه فقط ، بل هو على رأس اتجاه فكري عام له انصاره ومؤيدوه ، وان لم يبرز لهؤلاء عمل علمي متكامل يعتد به .

اما الاتجاه الاخر في النظر الى الموضوع فهو اشد وضوحا من الاتجاه السابق ، واعنف حدة في الفصل بين الدين والقومية ، وفي الهجوم على من يربطون بينهما باقوى الاسباب او باوهاها ، بل انهم ليرون على العكس من ذلك تماما ان الدين كان احد العوامل المعوقة في بعض الاحايين ، وذلك حين اختلطت الناحية القومية بالدينية، او بعبارة اخرى حين احتضنت الناحية الدينية الفكرة القومية ، فحينئذ دب اليها الضعف والهزال ، وكادت الشخصية العربية تضيع تحت وصاية الناحية الدينية . وهم يستشهدون على ذلك باحداث التاريخ العربي الطويل ويرون انها كلها تؤكد وتؤيد وجهة نظرهم في الفصل بين الدين والقومية .

فمثلا في فجر التاريخ العربي حين خرج العرب من جزيرتهم في انتشار المد القومي ايام دولتي الفرس والروم انضاف عرب الحيرة المسيحيون مع اخوانهم المسلمين ضد الفرس الوثنيين على الرغم من اختلاف الدين ، بل

(١) الاداب : يناير سنة ١٩٥٨ عن : الادب والقومية العربية .

(٢) الاداب : العدد السابق ص : ٧ .

(٣) الاداب العدد السابق ص : ٩ يناير سنة ١٩٥٨ .

أكثر من ذلك انضم عرب الغساسنة النصارى الى اخوانهم ضد الروم الذين يتحدون معهم في الدين (٤) .

بل ان حياة الدولتين الاموية والعباسية من اهم ما يستشهد بها لهذا الاتجاه فالدولة الاموية كان الفرد العربي فيها يدين بالولاء للجماعة العربية مباشرة ، وكان العرب في عهدها في قوة ومنعة ، اما في عهد العباسيين فقد اصبح هناك وسيط بين ولاء الفرد العربي لامته وهو الناحية الدينية او الخلافة ، وبذلك انحدر الوعي القومي واستمر في الانحدار حتى وصل الى اقصى انحداره بفقدان العرب حريتهم واستقلالهم حيث جمدوا وتصلبوا نتيجة نوم الروح القومية في احضان الفكرة الدينية منذ عهد الخليفة المتوكل الى العصر الحديث (٥) .

بل ان الشاهد القريب على ذلك هو الدولة التركية التي اصيب العرب في عهدها باقسى المهانة والتخلف ،واصبح المجتمع العربي منطويا على نفسه ، بل اصبح طعمة للطامعين والمستعمرين نتيجة ولاء الفرد العربي للفكرة الدينية حيث ارتبطت بالدولة العثمانية التركية ، فقد استغل الدين لضمان الولاء للدولة ، بينما العرب في ظلها يهوون الى الحضيض ، ويعيشون في التخلف والجهل .

كل هذا ـ في رأي اصحاب هذا الاتجاه ـ يؤكد ضرورة الفصل بين الدين والقومية ، بل يؤكد ما هو اكثر تطرفا وهو اندحار الروح القومية في ظل الناحية الدينية، يقول بعضهم : « ان القومية في اصلها وجوهرها شعور ، والامة هي نتيجة هذا الشعور ، هي نتيجة شعور الافراد واعتقادهم بوجودها ، وهذا يتحقق بالاشتراك في اللغة والتاريخ والافكار ولا يهمنا ان يشتركوا في الدين او العنصر (٦) » فمن غير المهم في رأي هذا الباحث الاشتراك في الدين ، فالقومية في رأيه يجب ان تفصل عن الدين .

ومن ابرز المنادين بهذا الاتجاه الاستاذ «ساطع الحصري» والاستاذ « منيف الرزاز » وقد الح الاول على هذه الفكرة الحاحا متواليا في كثير من كتبه ، ومن رأيه ان الحركة الاسلامية « كانت احدى الهزات الهامة في حياة العرب القومية ، ولكنها لم تكن اساسا للقومية ولا موجدة لها » فالحركة الاسلامية لم تبق مرتبطة بالقومية العربية ارتباطا تاما ، لان بعض الجماعات استعربت دون ان تعتنق الديانة الاسلامية ، وبعكس ذلك فان بعض الجماعات اعتنقت الديانة الاسلامية دون ان تستعرب ، وتكونت بذلك جماعات عربية غير مسلمة ، من ناحية ، وامم مسلمة غير عربية من ناحية اخرى (٧) » وهو بذلك يقدم شاهدا اخر على عدم ارتباط الدين بالقومية ، اذ لم تبق الفكرة القومية مرتبطة بالدين ، بل انها لم تكن مرتبطة به من قبل وجوده ، فهناك فاصل فكري بين الاثنين ، وهو نفسه الذي كان مظهره عمليا في الشعوب العربية والمسلمة ، حيث لم يكن ارتباط تام بين الامرين .

والاستاذ الحصري يركز في كتاباته دائما على ان الارتباط الحقيقي انما هو بين اللغة والقومية ، اذ يعتبرها عامل القومية الاول والاصيل في الوقت نفسه .

اما الاستاذ « الرزاز » ـ وهو احد ممثلي حركة البعث العربي ـ فيتفق مع الاول في نفس الاتجاه ، اذ يرى ايضا ان هناك فاصلا فكريا بين الدين والقومية ، وهو ما ترجم واقعا في الفصل بين الامم العربية والاسلامية (٨) لكنه يضيف الى ذلك ان الدين الحق قيم دافعة خالقة تربي في الجماعة وفي الافراد عناصر الخير والحق والقوة ، وان هذه القيم لا تنبع فقط من تعاليم الاسلام او اي دين اخر ، بل تنبع اساسا من الظروف الاجتماعية والتربية النفسية اللتين تشكلان هذه القيم التي تكون ترجمتها في السلوك عزة وقوة او ضعفا وذلة « فالاخلاق الحقيقية هي التي تنبعث من النفس بحرية ، ولا تفرض فرضا ، انها نتيجة لتفاعل النفس مع المجتمع وتجاربها ومعاناتها للحياة ، لا نتيجة النصح والارشاد من جهة والقيود من جهة اخرى، ان القيود قد تحدد السلوك ، ولكنها لا تحدد ما وراء ذلك من دوافع خلقية (٩) » فالدين ليس طقوسا ، ولكنه قيم ، وليس تعاليم ، ولكنه سلوك نظيف ، فهو يخطو بنا خطوة متطرفة عما قاله الاستاذ الحصري ، وان كان كلاهما يتفقان في الاتجاه القائل بالفصل بين الدين والقومية .

واذا كان من الحق ان الاتجاه الاول قد تطرف في جعل الدين هو كل شيء بالنسبة للعرب ، فان من الحق كذلك ان الاتجاه الثاني قد تطرف ـ في ابحاث بعضهم ـ في تجريد الدين من كل شيء يتصل بالقومية ، بل زاد فحمله وزر التخلف والهوان الذي لحق بالعرب في فترات مؤسفة من تاريخهم الطويل ، والقضية بين هؤلاء واولئك تتأرجح من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، وربما اتخذت شكل صراع حاد خفي لم يصل الامر به الى حد الصدام الفعلي الظاهر ، ولكن هذا لا ينفي وجوده ، ولا ينفي خطورته في الوقت نفسه ، وان كان الاتجاه الاخير اكثر حيوية ، وانشط تأليفا وانتاجا لتأييد فكرته وتنظيم صفوفه ، ولا ضير مطلقا من وجود مثل ذلك الصراع الفكري ما دام يثري الروح القومية ويخدم الحقيقة .

والدين الذي يدور حوله موضوع هذا المقال هو الدين الاسلامي الذي هو دين الغالبية العظمى من ابناء الوطن العربي ، اذ يكون معتنقوه النسبة العددية الغالبة في الاقطار العربية ، وتبلغ هذه النسبة حوالي ٩٥ بالمئة اغلبهم سنيون والباقي شيعة ، موزعون بين الزيدية في اليمن والامامية في العراق .

---

(٤) اصول الوعي القومي العربي ص : ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) راجع السابق ص : ٢٦ وما بعدها .

(٦) محمد والقومية العربية ص : ١٢ .

(٧) ما هي القومية ص : ٢٤٣ .

(٨) انظر : معالم الحياة العربية الجديدة ص : ٢٦٨ وما بعدها .

(٩) انظر : معالم الحياة العربية الجديدة ص : ٢٦٨ وما بعدها .

اما بقية السكان فهم من المسيحيين الذين يتركز معظمهم في الجمهورية العربية المتحدة ولبنان ، واليهود الذين لا يزيدون عن ربع مليون موزعين في الجمهورية العربية والعراق والمغرب (١٠) .

وبنظرة الى هذا الاحصاء يتضح ما تقدم من ان المقصود بالدين الذي دار الخلاف فيما سبق عن تأثيره في القومية والذي سنتبين مسالك تأثيره في القومية هو الدين الاسلامي ، بحكم انه هو الذي فرض وجوده واقعيا في العالم العربي منذ امد بعيد ، ويعتنقه حاليا معظم السكان العرب .

وعلى ذلك سأقرر اولا الرأي في هذه القضية بصورة عامة ، ثم اتتبع مسالك التأثير الديني في الروح القومية بعد ذلك .

**

ان وضع القضية بهذه الصورة الحادة الحاسمة ـ تأثير او لا تأثير ـ هو الذي ادى الى الخلط والاضطراب ، وهو في نفس الوقت قد دفع الى الانحياز ، ثم محاولة تسويغه موقفا ضديا للمعارضة وتلمس جوانب الضعف في الجانب بعد ذلك بكل الوسائل الممكنة ، والوقوف من الرأي الاخر المقابل .

والذي اعلمه انه من غير المعقول ان نفترض الحسم فيما لا يحتمل بذاته الحسم وان نعيش في تجريدات فكرية، فيما نحسه أمامنا وأقعامن واجبنا أن نصفه فقط ،دون أن تكون لدينا افكار سابقة نفترضها قبله ، ثم نفرضها عليه سواء أكان مضمون هذه الافكار القول بالتأثير التام للاسلام على القومية او بالرفض القاطع لذلك التأثير ، لان هذا منهج لا يتسم بالتسامح ، وهو مرفوض في البحث العلمي السليم .

والحقيقة ان كلا الاتجاهين يمكن ان يلتقيا اذا طرحنا من حسابنا الانحياز الاعمى والقول بالحسم ، وافتراض النتيجة قبل البحث .

فالاسلام حقا ليس اهم المؤثرات في القومية العربية، فان للقومية العربية عوامل اخرى وحدت مشاعر الامة العربية ، وما زالت توحدها ، وتجمع بينها برباط متين، ولكنه من ناحية اخرى يتداخل مع بعض هذه العوامل ليكون مؤثرا فيها بطريق مباشر ، وفي الروح القومية بطريق غير مباشر .

وسأحاول جهدي ـ في حياد وموضوعية ـ استقراء هذه المسالك التي يسلكها التأثير الديني ، ليسند الروح القومية وينميها ويزيدها تأججا واشتعالا ، ولا علي ان اقدم ما اعتقده الحق في هذا الموضوع معتمدا على الواقع وعلى شتات اراء بعض الباحثين التي تؤيد هذا الواقع وتتفق معه.

**

ان للقومية العربية واقعا شعوريا ، كان وما يزال نابضا حيا تتلاقى عنده الشعوب العربية كلها على الرغم من اختلاف ظروفها للان في التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . واذا لم يكن هذا الشعور الموحد قد ترجم تطبيقا في التنظيمات السابقة ، فانه يمثل لنا واقعا اكيدا يشع منه امل قوي في الالتقاء حول تنظيم واحد عاجلا او آجلا ، فما دامت النفس العربية عامرة بممكناتها الشعورية الموحدة ، فان التفاعل المستمر سيجعل من التنظيم العملي حقيقة ممكنة ومحتومة .

والاسلام يدخل من هذه الزاوية على انه يؤدي رسالة المعاونة على وحدة هذا الشعور في بعض جوانبه « فالقرآن هو الذي صفى طباع العرب ، وصقل جوانب الروح العربية ، حتى صارت المعاني الالهية تتراءى فيه ، وكأنها عين معانيه (١١) » .

فالاحاسيس الروحية النابعة عن الدين الاسلامي نلمسها متغلغلة في اعماق النفوس العربية ، يصدر عنها الكثير من التعامل والسلوك ، والاسلام ايضا اوجد فيهم طريقة تكاد تتحد في بعض جوانب الثقافة والمثل، ولا اقصد بذلك الثقافة الساذجة المستكينة المستسلمة ، كما لا اقصد بالمثل تلك الصور البلهاء للتفويض والمسالمة ، ولكن ثقافة المسلم الحق الذي يفهم الاسلام على انه لممارسة الحياة بفن وسمو ، وكذلك المثل العملية التي تنبع عن المبادىء الدينية العامة ، لترسم للعربي طريق الحق والخير والجمال،

(١٠) هذا الاحصاء عن كتاب : وحدة الوطن العربي ص : ٦٨ وما بعدها.

(١١) محمد والقومية العربية ص : ٧٤ .

مؤلفات سيمون دو بوفوار

***

	ق.ل
* المثقفون (جزءان)	١٤٠٠
* مغامرة الانسان	١٥٠
* الوجودية وحكمة الشعوب	١٧٥
* نحو اخلاق وجودية	٢٢٥

ترجمة جورج طرابيشي

* بريجيت باردو وآفة لوليتا	١٥٠

منشورات دار الاداب

والاسلام قد ادى هذه الرسالة ومن ثم خلق بين العرب تماثلا عقليا استكمل به ما كان بينهم من التماثل القائم على اساس البيئة والجنس ، ولا يزال الاسلام يؤدي هذه الرسالة وان اختلفت قيمة هذا الاداء بين الافراد العرب حسب طريقة التناول والفهم ، ولكن هذا لا يمنع انه يؤدي رسالة الوحدة ايضا في هذا المجال .

وهكذا يتدخل الاسلام في بناء الشخصية العربية من الناحية النفسية ، اذ تتأكد فيها فضائل دافعة ايجابية تجد لها سندا من الدين كالثقة بالنفس والتضحية واداء الواجب والاخلاص للمبدأ والعقيدة ، وبعبارة قصيرة كل ما يصدق عليه انه صادر عن « ضمير نظيف » .

ولا شك ان الدين — في ذاته — يؤدي هذه الرسالة، وان لم يكن يؤديها وحده من ناحية ، ومن ناحية اخرى قد يشوهه التطبيق الساذج الابله عن غايته النبيلة بتحويله الى عامل مخيف رهيب .

ومهما يكن من امر فان للدين بعض الجهد في خدمة الناحية الشعورية القومية اذ هو اجلى مفصح عن شعور العرب الكوني ونظرتهم للحياة ، وهو اقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل ، والنفس بالقدرة ، فعلاقة الاسلام بالعروبة ليست كعلاقة اي دين باية قومية (١٢) ، اذ يتلاحم مع مشاعرنا الروحية والمثالية والعقلية ، ويتفاعل معها لخدمة الروح القومية .

**

ان الفهم الغالب للاسلام الذي يعتنقه مجموعة كبيرة من الناس — اميين ومن يشبههم من المثقفين — انه مجموعة من التقاليد والعادات الدينية المرسومة او بفهم اكثر نضجا انه قضايا فكرية وتنظيمات تربوية وخلقية تحقق سعادة الناس .

ولا شأن لي بما يحققه الدين للناس من سعادة دنيوية او اخروية — فهذا لا يدخل في نطاق عملي — ولكن الذي يهمني حقا هو هذا الفهم المتخلف للاسلام ، ذلك ان فهمه بهذه الصورة فهم جامد ميت لا روح فيه ولا حياة ، اذ هو وصف خارجي له ، لا يصل الى جذوره ولبه ، وصف المتفرج الذي يقف بعيدا عن تياره العميق الدافق.

اما الاسلام في جوهره وحقيقته فهو تلك التجربة العميقة الخصبة التي عاشها الرسول وصحبه اكثر من عشرين عاما، تجربة هزت الجزيرة العربية من اقصاها الى اقصاها وقبلها هزت النفس العربية كلها حيث انغمرت فيها بكل عواطفها ومشاعرها وبعدها انطلقت لتحقيق التجربة خارج الجزيرة في امتداد النفس والارض معا، فالاسلام ليس فقط تقاليد وعادات وليس قضايا فكرية مجردة ولكنه تجربة قومية عميقة واصيلة .

وليس الاسلام كذلك فقط . بل هو ايضا حضارة صبغت حياتنا العربية في ذلك المدى التاريخي الطويل(١٣) فصبغ تفكيرنا وتقاليدنا وعاداتنا واساطيرنا ومعتقداتنا وحياتنا اليومية والمعيشية وان المسيحيين العرب الذين عاشوا في هذه البلاد قد تأثروا بها الى حد كبير على رغم اختلاف الدين ، فالاسلام لم يكن مجرد دين فحسب ، بل كان تاريخا وحضارة وحياة عقلية (١٤) » .

هذا هو الاسلام في صورته الحية النابضة — تجربة قومية وحضارة خصبة شاملة — وهو بذلك ليس دينا جامدا ، وليس حادثا ماضيا نفاخر به دون فهم كما يحدث من السذج والبسطاء ، بل هو بهذين المظهرين السابقين صورة متطورة دائما في كيان الامة العربية يعيشها المسلم الحق دائما في درجة عالية من عمق النفس وغليان الشعور، وهي ايضا متجددة تجدد الواقع واحداثه، ومقدار تشكيل هذه الاحداث للخطر الذي يواجهنا .

ومن هنا يسلك الدين مسلكا اخر الى الروح القومية . لنخوض التجربة القومية من جديد ، فنتمرد على الواقع المتخلف ، والانقسام المفتعل ، والمظهر الشكلي العتيق للاسلام الذي يخفي وراءه ما يخفي من عيوب ومساوىء . ولكي يعيش الدين حضارة متجددة تتفاعل مع روح العصر في سمو ومثالية ، فنتطور في طريق الغد مصحوبا بما ورثناه من حضارة اسلامية ارتبطت اتم الارتباط بالدين. يقول احد الباحثين متحدثا عن قوة الاسلام بمفهومها القومي والحضاري « فاوروبا اليوم كما كانت في الماضي تخاف على نفسها من الاسلام ، ولكنها تعلم الان ان قوة الاسلام قد بعثت وظهرت بمظهر جديد هو القومية العربية، لذلك فهي توجه على هذه القوة الجديد كل اسلحتها ، بينما نراها تصادق الشكل العتيق للاسلام وتعاضده(١٥)» .

وبرغم ما في هذا الكلام من مجردات وتعميم ، فانه يحدد القضية تحديدا صحيحا الى حد بعيد .

اننا اذا عشنا الاسلام من جديد ، تجربة قومية وحضارة متطورة ، كان في ذلك تحقيق لالفتنا الدينية والقومية ، وانتصار في الوقت نفسه لقيمتنا الروحية .

**

اما المسلك الثالث الذي يؤثر به الدين في القومية فهو اللغة ، ويكاد الاجماع ينعقد على ان اللغة العربية هي العماد الاول للقومية ، اذ هي التي تعبر عن ثقافتهم وعن حياتهم ، عن افكارهم ووجدانهم ، وهي الرابطة الاساسية التي تتضاءل بجوارها الروابط الاخرى حتى روابط الدم والرحم « فالقومية العربية بهذا رابطة بين العرب اهم مظاهرها اللغة ، فمن تكلم العربية واتخذها لغة له ،وعاش في المجتمع العربي عيشة العربي ، واحس بما يحس به

(١٢) ذكرى الرسول العربي ص : ١٦ .

(١٣) راجع : فلسفة الوحدة ص : ١٠ وما بعدها — وحدة الوطن العربي ص : ٦٩ .

(١٤) معالم الحياة العربية الجديدة ص : ٢٧٠ .

(١٥) ذكرى الرسول العربي ص : ١٥ .

العرب من الم او امل فهو عربي ، ولو لم يكن عربي الدم والجنس (١٦) » فاللغة العربية هي للعربي وعاء ثقافته ومحل عنايته وصلة مشاعره المشتركة ، وقد عنى بها منذ فجر تاريخه اشد العناية وتأثر باشعارها وموسيقاها ومفرداتها واساليبها ابلغ التأثر ، ولم يكن من المستغرب ان يصرف العرب من وقتهم وجهدهم ومؤلفاتهم الشيء الكثير لدراستها وبحثها وتطويرها ، ولقد ظلت العامل الاول — حتى في عصور التدهور السياسي والاجتماعي — الذي حفظ لهم شخصيتهم ، وصان بقاءهم فهي متأصلة تأصلا عميقا عند جميع الشعوب العربية من الخليج الى المحيط ، بل هي الرابطة بين جيل وجيل ، يتوارثونها خلفا عن سلف ، فهي لغة تخاطبهم المشتركة حتى عند من لا يدينون بالاسلام من مسيحيين ويهود (١٧) .

ذلك باختصار هو الدور الهام الذي تؤديه اللغة العربية للقومية ، فما هو دور الاسلام في هذا العامل الاول من عوامل القومية ؟؟

لقد نزل القرآن باللغة العربية ، وهكذا ذكر في اكثر من موضع (انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر ام القرى ومن حولها) وغير ذلك من الايات .

فقد ارتبط القرآن باللغة العربية ، وكذلك ارتبطت اللغة العربية بالقرآن . ومن هنا كان تأثير الدين عميقا في هذا العامل الهام ، يلخصه الاستاذ « ساطع الحصري » في امرين :

اولا : ان الديانة الاسلامية كانت القوة الدافعة للفتوحات العربية التي نشرت اللغة العربية ووسعت نطاق القومية العربية .

ثانيا : صارت القوة الواقية التي اكسبت اللغة المذكورة نوعا من المناعة ضد عوامل التفرع والتفتت ، وصانت بذلك القوة العربية من الانشطار في عهد انحطاطها الطويل (١٨) .

واذا كانت اللغة تنزل من روح العربي وشعوره هذه المنزلة التي ذكرتها فيما سبق باختصار فان من المؤكد ان الاندماج الروحي للاسلام بالنفس العربية ذو تأثير مزدوج من قوة الدين وقوة اللغة ايضا ، هذا الاندماج لدى العربي فطرة يعيشها دون ان يشعر ، لانها اصبحت لديه بدهية لا تقبل الجدل او النقاش ، هكذا كان هذا الاندماج وهكذا ظل عميقا واصيلا في نفس العربي حتى الوقت الحاضر .

وبذلك يضاف لما ذكره الاستاذ « الحصري » بعد ثالث لتأثير الدين في اللغة وبالتالي في القومية .

ولكن ما هي الادبيات العامة التي احاطت باللغة حتى اكتسبت هذه المناعة والحيوية عن طريق الدين ؟؟

(١٦) الفكر العربي ومكانه في التاريخ ص : ٤ .

(١٧) انظر : الطريق الى السويس ص : ١٨ وما بعدها .

(١٨) ما هي القومية ص : ٢٤٩ .

معلوم ان الدين — اي دين — له من القداسة والهيبة ما يفرض بهما على معتنقيه اتباعه والمحافظة على مظاهره وروحانيته ، وقد سرت هذه القداسة نفسها الى اللغة العربية فحافظ العرب عليها من الانحراف والذوبان في تاريخهم الطويل ، وظلت محتفظة — بصورة عامة — بالفاظها وتراكيبها واساليبها ، مع تطور في ذلك تمليه طبيعة اللغات التي هي من الظواهر الاجتماعية التي تتطور باستمرار ، ويعود جزء كبير من هذه الروح المحافظة الى نظرة القداسة التي سرت اليها من قداسة القرآن وتعظيمه .

ومعلوم كذلك ان اللغة التي نقصدها هنا هي اللغة المشتركة التي يفهمها كل العرب دون اللهجات التي تفرعت عنها ، فاللهجات ليست عامل توحد ، لانها اقليمية محصورة بين فئات خاصة ، حيث تستخدم في الحياة العادية ، وفي مجالات لا ترقى بحال الى ما للمشتركة من الشمول والقوة ، وقد تعرضت المشتركة الفصحى لمحن كثيرة نتيجة التفكك السياسي والاجتماعي الذي عاناه العرب من قبل .

وفي رأي بعض الباحثين انه كان من الممكن أن تنحل المشتركة الى لهجات ، ثم تذوب وتضيع ، وفي رأيه كذلك ان القرآن قد وقف سدا منيعا امام هذا الخطر الجسيم ، فحافظ على اللغة الفصحى من الاندماج في اللهجات (١٩) .

وهذا الرأي الذي سبق لا يتفق في فكرته العملية مع ما تقرره الدراسات اللغوية الحديثة التي تقرر ان وجود المشتركة بجانب اللهجات امر طبيعي في اللغات ، وليس ذلك خاصا باللغة العربية وحدها ، وليس من جسامة الخطورة بالصورة التي يصورها السيد الباحث ومن يرى رأيه ، وقد عالجت هذا الموضوع في بحث سابق تحت عنوان « مجال الصراع بين اللهجات والفصحى (٢٠) » ولكن على الرغم من ذلك فقد كان الدين الاسلامي بعامة والقرآن بخاصة من العوامل التي ساعدت في الحفاظ على قوة اللغة العربية وصفائها في هذا المدى الطويل ، وعن ذلك الطريق — طريق اللغة — نلمس ايضا اثر الدين في القومية .

**

« الرسول عربي والرسالة التي جاء بها حملها العرب » من هذه القضية يتحدد المسلك الرابع والاخير الذي يسلكه الاسلام الى القومية .

ذلك انه كان لشخصية محمد (ص) جانبان مضيئان يتكاملان معا . وتؤيدهما النصوص التي وردت في القرآن وفي احاديث الرسول وافعاله ، فهو باعتباره صاحب دعوة ورسالة قد جاء لجميع البشر ، لا فرق في ذلك بين عربي وغير عربي ، ولا بين اسود وابيض يقول القرآن (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) و (قل يأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) ويقول الرسول (ص) (ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى)

(١٩) السابق ص : ٢٤٦ .

(٢٠) الاداب ، سبتمبر سنة ١٩٦١ .

و (بعثت الى الناس كافة) . فهو من هذا الجانب انساني يؤدي رسالة الله الى جميع البشر ، ويبلغها الى الناس ، كل الناس . ولكن محمدا باعتباره فردا نشأ في المجتمع العربي ، وعاش فيه ، وتأثر به ، وأثر فيه مع تقديره للدور الهام لهؤلاء العرب في اداء رسالته العامة للناس ، كان يعتز بعروبته ، ويقدر خطرها ودورها في تحقيق رسالته والوصول الى اهدافه ، وهذا احساس طبيعي بشري لا غرابة فيه ، احساس بالولاء العظيم لقومه ، واعتزاز من الفرد بمجتمعه ، وتقدير القائد لجنده ، وقد ورد كثير من النصوص التي تزكي هذا الجانب وتؤيده (انما انا رسول الله الى الناس كافة غير اني عربي ولدت في قريش ، واسترضعت في بني سعد) .

وعن سلمان الفارسي (ض) قال : قال لي رسول الله (ص) لا تبغضني فتفارق دينك قلت : وكيف ابغضك يا رسول الله ، وبك هداني الله ، قال : تبغض العرب ، فتبغضني ، وقد اهتم اشد الاهتمام في مرضه الذي مات فيه بالعرب واوصى بهم خيراً .

هذان الجانبان يتكاملان في حياة محمد ليقدما صورة رائعة للعربي صاحب الرسالة ، وهما انفسهما ما يجب ان يعيشه العربي المسلم الان من جديد رسالة دينية يحملها في روحه تطالبه ان يعتز بنفسه وقومه ، وان يؤكد هذا الاعتزاز بشعوره وفكره وعمله وان يحيا هذه الشخصية العظيمة في اطارها الديني والعربي بكل ما لهما من روعة وجلال « فيستطيع اي عربي ان يكون مصغرا ضئيلا لمحمد ، ما دام ينتسب الى الامة التي انجبت محمدا ، او بالاحرى ما دام ينتسب الى الامة التي حشد محمد كل قواه فانجبها (٢١) » وبذلك نستمد من حياة الرسول الخاصة دفعة قوية لاعتزاز العربي بقيمته وقومه .

اما الجزء الاخير من القضية فهو واقع عاشه العرب وما يزالون ، ذلك ان الدين الاسلامي حين نزال على محمد كان مجال تبليغه بين قومه العرب ، واشار الرسول لذلك في اول اعلان لدعوته (والله اني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة) وقد دارت احداث التبليغ والتشريع والنشر والانتشار بين هؤلاء العرب ، فقد كانوا اذن مسوحا للتجربة السماوية العظيمة التي نزل بها القرآن ، فحملوها ببطولة ومثالية ، وانطلقوا بها الى الناس فيما وراء حدودهم بعد ذلك ، ليخلقوا من التجربة تماثلا جديدا بين من وفدوا عليهم ، وتآلفوا معهم ، واندمجوا فيهم .

هذا العمل العظيم الرائع كان العرب له اهلا ، ولحمله اكفاء ، ولقد حملهم القرآن مسئولية ذلك وشرفهم به ، يقول (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وفي تخصيصهم بشرف الذكر بعد الرسول ، وانهم (قومه) الذين ارتفعوا الى مستوى المسئولية تقدير رائع لقيمة هؤلاء القوم الذين ادوا دورهم بفدائية قل ان يحدث لها نظير في تاريخ الهزات القومية .

(٢١) ذكرى الرسول العربي ص : ٩ ـ ١٠ .

ومن هذه الاية السابقة نفهم سر التوالي بين القرآن (انه) وبين الرسول (لك) وبين قومه العرب (لقومك) اذ نرى الرسول العربي وقومه العرب يتضامنان لتحمل المسئولية (وسوف تسألون) ونستنتج تبعا لذلك ان الانطلاق العربي الاول ارتبط بالدين الاسلامي لتبليغه ونشره ، وبذلك كان الدين في وجدان العربي هدفا لتبليغه وعنوانا ليقظته وطاقة تفجير ثورية لروحه .

ومن واجب العربي المسلم الان ان يبعث مرة اخرى هذه اليقظة ، ويفجر امكانياته وطاقاته ليعيد فضائله الاولى التي ارتبطت بيقظته ، واطلقت احساسه بقوميته ومسئوليته وان كانت هذه المسئولية تختلف اهدافها تبعا لاختلاف الظروف بين عهد العربي الاول بالاسلام ، وبين عهده بظروفه الان ، اذ كان واجبه الاول ـ كما سبق ـ التبليغ ونشر الرسالة الدينية ، اما الان فان واجبه ينبع من روح هذه الرسالة للتمرد على التخلف ، وتحقيق الالفة والوحدة متخذا من فضائل الاسلام العامة النظيفة دافعه ورائده ، ذلك انه من غير الممكن ان يقوى العرب على اداء دورهم الان كما ادوا دورهم الاسلامي من قبل دون ان يكونوا متآلفين متحدين ، فقد كانت وحدتهم هي سر نجاحهم في اداء دورهم الاسلامي ، وهي نفسها الغاية التي نعمل الان جاهدين من اجلها « فاذا اتحد العرب ، وغدت جيوشهم واقتصادياتهم وتشريعاتهم وثقافتهم وسياستهم موحدة ، استطاعوا ان يقوموا بواجبهم على احسن وجه بعكس ما اذا ظلوا متفرقين حيث تظل قوتهم المادية والمعنوية عاجزة عن ادراك الهدف والتفرغ له (٢٢) » .

فالعرب الذين عاشوا اولا تجربة الاسلام قد نجحوا لاتحادهم والفتهم ، وهم مطالبون اليوم ـ دينيا وقوميا ـ بالاتحاد والتآلف لتأدية رسالتهم القومية الجديدة التي حتمت ظروفهم الجديدة حملها ومسئوليتهم عنها .

القاهرة — **محمد عيد**

المراجع التي ورد ذكرها في المقال

١ ـ مجلة (الاداب)
٢ ـ اصول الوعي القومي العربي — عبد العزيز رفاعي
٣ ـ محمد والقومية العربية — علي حسني الخربوطلي
٤ ـ ما هي القومية — ساطع الحصري
٥ ـ معالم الحياة العربية الجديدة — منيف الرزاز
٦ ـ وحدة الوطن العربي — يوسف ابو الحجاج
٨ ـ فلسفة الوحدة — ميشيل عفلق
٧ ـ ذكرى الرسول العربي — حسين خلاف
٩ ـ الفكر العربي ومكانه في التاريخ (اوليري) — ترجمة تمام حسان
١٠ ـ الطريق الى السويس — (ارسكين تشيلدرز) ترجمة خيري حماد
١١ ـ الوحدة العربية — محمد عزة دروزه

(٢٢) الوحدة العربية ص : ١١٣ .